

علوم اللغة العربية في المدارس الثانوية للدكتور زكي مبارك

تمهيد

جرت وزارة المعارف منذ أعوام على الاستفادة من إجازة نصف السنة بجمعها مؤتمرات للفتشيين يتبادلون فيها الآراء حول مناهج التعليم وأحوال التلاميذ

وحديث اليوم عن الأسئلة التي وجهتها المراقبة السامة للتعليم الثانوي إلى مفتشي التعليم الثانوي ، وهي أسئلة دار حولها الجدال يومين ، وقيلت فيها أقوال تستحق التسجيل ، وقد استشرت زملائي في إعلان بعض تلك الأقوال ، فأجابوا بالترحيب

ظاهرة إنسانية

لا أعرف كيف دارت المناقشات بين مفتشي الرياضة والعلوم والمواد الاجتماعية ، ولكنني أعرف كيف دارت المناقشات بين مفتشي اللغة العربية

كان الشوق إلى الكلام شديداً جداً ، وكان كل مفتش يحب أن يتكلم بإطناب ، وكأنه يريد أن يكون المتكلم الوحيد ! كان في الفتشيين من يقف ليخطب ، مع أن الجمهور الذي تألف منا لم يزد عن أحد عشر كوكباً !

ومع أن شهوتي إلى الكلام قليلة لكثرة ما أعتبر بالقلم عما يجول في صدري ، فقد زاحمتُ بعنف لأنكم أنا أيضاً ، وقد تكلمت حتى اشتفيت !

فأسرّ الشوق إلى الكلام حين يتلاقى الناس ؟ يرجع ذلك فيما أفترض إلى أن طرائق التفاهم عند الإنسان قد انحصرت في طريق واحد : هو النطق ، وبذلك عطلت طرائق التفاهم بالرّمز والإشارة والإيماء

والظاهر أن انحصار التفاهم في النطق فضيلة إنسانية ، فضيلة دعا إليها اشتباك الأغراض بصورة لا ينفع فيها غير التحديد بالألفاظ

والظاهر أيضاً أن اختراع الكتابة من أعظم المخترعات

الإنسانية ، لأنه يري إلى تسجيل الألفاظ قبل أن تنسيع ، وإلى تثبيت ما فيها من مسئوليات

هل أريد أن أقول إن « السجّل » غاب عن اجتماعات الفتشيين ، وأنهم لو كانوا يعرفون أن كلماتهم ستُسجّل كما وقت لاقتصدوا في الخطابة بمض الاقتصاد ؟

إن الآداب الدينية توصي بأن نحترس ، وتوجب أن نفهم أن الإنسان ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . فالخوف من تدوين الألفاظ بابٌ إلى أدب اللسان

وليس معنى هذا أن الفتشيين قالوا كلاماً لا ينبغي أن يقال — لا — ولكن معناه أنهم لو عرفوا أن كلامهم سيسجّل لأعدوا كلاماً أقوى من الكلام الذي قيل ، مع أنه من الكلام النفيس

كل شيء صائرٌ إلى التحديد ، فالإنسان كان يعتبر بالإشارة ، ثم ارتقى فصار يعتبر باللفظ ، ثم ارتقى فصار يعتبر بالكتابة ، وسيرتقى مرةً جديدة فتكون له لغة واحدة ، لغة محدودة لا يتطرق إليها كبس ، ولا يعترضها غموض

من متاعب الإنسانية أن اللفظ الواحد في اللغة الواحدة قد يختلف مدلوله باختلاف الأذواق ، بحيث يكون مدحاً عند هذا وقدحاً عند ذاك

وأعصابنا تتأثر بالألفاظ ، أو باختلاف ما نفهم من مدلولات الألفاظ ، فتتوزل أسباب هذا الاختلاف ؟ الرأي عندي أن هذه البلبلة الخطرة من أعظم مزايا الإنسانية ، ولكن كيف ؟

القوة الحقيقية للإنسان هي قدرته الأصلية على الظفر بأكبر محصول من اشتجار المواطن والأحاسيس والآراء والأهواء ولو توحدت اللغات والتعاير فزال جميع أسباب الاختلاف لتحول الإنسان إلى صورة آلية لا يسيّر ها غير ضريم « البزير » نحن مختلف أقل مما يجب ، وبنا إذا لم نختلف ! المثال الصحيح للاتفاق هو أمة النمل ، ونحن نكره التشبه بأمة النمل

الاختلاف هو الذي خلق العلوم والدينيات ، وهو الذي أوجب أن يكون لكل ثمرة مذاق

الاختلاف واجب ، أما التعادي فهو بلاء

الإنشاء

يطلب منه أن يفكر كما يفكر، وأن يرى الدنيا بعينه ويسمعا بأذنيه، ولا يخطر في باله أن كل تلميذ له تصور خاص، وأن التلاميذ يختلفون في الأفكار كما يختلفون في الملامح

وقد يتفق أن نرى التلاميذ في الموضوع الواحد يثبتون أقوالاً وآراءً مقتربة كل الاقتراب، فنفهم أن الدرس أنزل عليهم الوحي الكاذب أو الصادق، وكنا نرجو أن يفكر في تقوية مواهبهم تقوية سليمة، وذلك لا يتم بغير دعوتهم إلى شرح ما يعتلج في صدورهم من المعاني والأغراض شرحاً لا تهيمن عليه قوة خارجية

السبب الثالث هو تقديم موضوعات بعيدة عن مدارك التلاميذ، وأريد بها الموضوعات الميتة، الموضوعات التي لا تأخذ وقودها من الحياة الواقعية

وسمرد هذا إلى الجهل بحجرات التلاميذ، فلمهم اتجاهات فردية واجتماعية غير اتجاهات المدرسين، ومن الواجب أن تكون موضوعات الإنشاء في شرح تلك الاتجاهات

وهل ينتظر المدرس أن يجيد التلاميذ في كتابة موضوع تلقاه وهو تلميذ قبل عشرين سنة أو تزيد؟

في المدرسين من لا يختار موضوع الإنشاء، وفيهم من ينقل الموضوعات التي أُلقيت على تلاميذ المدرسة الغلانية، وفيهم

من يكرر الموضوع الواحد بضع سنين

الإنشاء اسمه إنشاء

فاختيار الموضوع إنشاء

واللفتة الذهنية عند المدرس باب من الانشاء

وخطأ التلميذ، الخطأ النقول عن طبيعته الذاتية فن من الانشاء والمهم هو أن نجد في الصف المكون من ثلاثين تلميذاً ثلاثين صورة من التفكير والأداء، لا صورة منسوخة من حضرة المدرس الفضال

السبب الرابع إقبال المدرس على تصحيح الكراريس وفي ذهنه صورة محدودة للاجابات، فهو يحمل كل فكرة منحرفة عن تلك الصورة، ولا يثيب التلميذ إلا بقدر محاذاة للعناصر التي فرضها عليه قبل الشروع في الإنشاء

وهذه الطريقة تقتل شخصية التلميذ، وتميت فيه بواكير

قالت مراقبة التلميم الثانوى : إن إنشاء التلاميذ لا تزال نكسر فيه الأغلاط النحوية والصرفية والإملائية، ثم دعت المفتشين إلى أن يشيروا بما يرون لمعالجة هذه الحال، فإذا قالوا؟ قال الأستاذ جاد المولى بك : إن أهم المظاهر لمعرفة اللغات هو إجادة الخطابة والكتابة، وإن في المدرسين أنفسهم من يصعب عليه الإنشاء، ولعله يصعب أيضاً على بعض المفتشين ! فمن الواجب أن يراض التلميذ على الكتابة والخطابة رياضة جديدة وأن تكون قدرتهم على هذين الفنين أول ما يهيم المدرسين

وقال الأستاذ منصور سليمان : إن تعليم الإنشاء في المدارس المصرية قد ابتلى بأفة قبيحة، آفة مموقة للفكر، وهي الحرص على الزخرف وعلى الإطناب في جميع الموضوعات. وقد رأيت في أحوال كثيرة أن التلميذ يثاب على التطويل بأكثر مما يثاب على التدقيق. ومن هنا شاع القول بأن اللغة العربية تمتاز بالتهويل والإسراف. وشكوى المدرسين من التعب في تصحيح دفاتر الإنشاء لا تستحق أى التفات، لأنهم مصدر هذا التعب، فهم الذين يوحون إلى تلاميذهم أن الإطالة من علائم البيان

مسألة الإنشاء

كلام الأستاذ منصور سليمان يتيح الفرصة لأن أفصل رأيي في هذه المسألة، وهي مشكلة أساسية، فما الذى دعا إلى ضعف التلاميذ في الانشاء؟

السبب الأول هو سيطرة المدرس على لغة التلميذ، ومعنى هذا أن المدرس ينتظر دائماً أن يعبر التلميذ عن غرضه بالفاظ مخزونة في ذاكرة المدرس

وتصحيات بعض المدرسين تؤيد هذا القول، فهم يدورون حول ألفاظ أعدوها لكل موضوع، وهم يسجلون بالقلم الأحمر تلك الألفاظ تسجيلاً يظهر أثره في جميع الكراريس

بعض المدرسين يملون على تلاميذهم ألفاظاً وتعايير تصلح لكل موضوع، كما يزعمون، وهي طريقة عقيمة، ولا يعتمد عليها غير المدرس الببغاء

السبب الثانى هو تحكم المدرس في عقل التلميذ، فهو

لو غلا الجبر الأحمر لاقتصاد المدرسون في تلك البرقشة الحمراء ، وهي برقشة ثقيلة الدم ، فهي تشمر التلميذ في كل يوم بأنه تلميذ ، ولا تتيح له فرصة الشعور بأنه إنسان له وجود مستقل ، ولو بعض الاستقلال

إذا كانت الكلمة صواباً في قول وخطأ في أقوال فيجب تركها بدون تصحيح ، لأن ورودها على قلم التلميذ شاهد على أن هذا الخطأ أحياناً من ذلك الصواب

وإذا وردت كلمة عامية لها أصل بعيد من اللغة الفصيحة فيجب تركها بدون تصحيح

دعانا الدكتور هيكل باشا مهة للتشاور فيما يجب لتقليل الأخطاء في كرارس التلاميذ ، قلت : إن المدرسين يوجبون حذف « القوطة » وإثبات « القطيلة »

قلت : وما القطيلة ؟

قلت : هي كلمة يعرفها المدرسون ويجهلها وزير المعارف ، مع أنه من كتاب الطبقة الأولى في اللغة العربية

ثم قلت : يوجد مؤلف كبير اسمه ابن القوطى بالقاء ، والجرائد تجهل اسمه فتسميه ابن القوطى بالقاف

فا الذى يوجب الحذقة بتسمية القوطة منشقة أو قطيلة ؟

مددوا الطريق للألفاظ الحية ، وتركوا الألفاظ الميتة ،

فا يموت لفظ إلا بعد العجز عن البقاء

السبب السادس هو الهيام بتجميل الموضوعات بالباطل حينما

وقعت ، فلمب الكورة فرش بالبساط السندس ، مع أن الأفضل أن يفرش بنبات النجيل ... والحديقة يجب أن توصف

بأنها غناء ، ولو كانت فوق سطح البيت . وتحت يدى وثيقة تشهد بأن سطح الفندق الفلانى في المدينة الفلانية وصف بالفرنسية

مرة وبالعربية مرة فليل بالفرنسية إنه منظر « Panorama »

يرى به الناظر جميع الآفاق ، وقيل بالعربية إنه حديقة غناء ، مع أنه لا يتسع لنير شجيرات محبوسة في زهرات ا

ثم ماذا ؟ ... عندى كلام كثير في العوائق الذى تصد

التلاميذ عن إجادة الانشاء ، وأنا أكتب مقالاً لا كتاباً ، فن

الواجب أن أكتفى بالتلاميذ

وأنا أختم هذا المقال بالحقيقة الآتية :

هل يوجد مدرس يراقب ما يقرأ التلاميذ من الجرائد

الابتداع والانتقان . وما ظنكم بتلميذ يرى الخير كل الخير في محاكاة المدرس ، وبهمل ملكاته الإبداعية كل الإهمال ؟

ما ظنكم بتلميذ يراض على الإيمان بأن رأى المدرس هو رأى ، وتقضى عليه التجارب المدرسية بأن يفهم أن نجاحه

يقاس بمقياس رأى المدرس ؟

هذه الظاهرة موجودة بالفعل ، وهي السبب في الإكثار من دروس الإنشاء الشفوى ، وهي دروس عقيمة ، لأن الغرض

منها توجيه التلاميذ توجيهاً حرفياً إلى الأفكار التى يجب المدرس إثباتها في موضوع الإنشاء

ومن أغرب ما يقع أن يقيد المدرس فوق السبورة ألفاظاً وتعايير تساعد التلاميذ على إبراز العناصر الأساسية ، وتكون

النتيجة أن تكثر المبتذلات « الكليشيات » فترى في الكراريس جميعاً صوراً موحدة في الأداء ، وهذا يقل لا إنشاء

وهنا أقترح أن تقصر دروس الإنشاء الشفوى على المدارس الابتدائية ، لأنها توجيه للمبتدئين . أما المدارس الثانوية

فلا تجوز فيها دروس الإنشاء الشفوى ، لأنها تزيد في اتكال التلميذ على المدرس ، والانتقال باب إلى البلادة والجمود

وأقترح أيضاً أن تكتب أكثر الموضوعات في الفصل ، ليعرف المدرس قوى تلاميذه على الوجه الصحيح

وهل ننسى أن بعض التلاميذ يعتمدون على غيرهم في الإنشاء ليلقوا المدرسين بأساليب مثقلة بالزخرف والتنميق ؟

وهل ننسى أن في المدرسين من يغيب عنه ما في كراس التلميذ من سرقات أدبية ؟

وهل ننسى أن في المدرسين من لا يفكر في الموازنة بين الموضوع السابق والموضوع اللاحق ، ليعرف كيف يتطور

تفكير التلميذ ؟

السبب الخامس غرام بعض المدرسين بالإكثار من التصحيحات إكثاراً يشهد برغبتهم في التفوق والاستعلاء

وهذا الغرام يتفعهم عند بعض المفتشين ، لأنه دليل على التدقيق ، ودليل على الفهم لأسرار اللغة العربية ، ولعله الباعث

على بعض الترقيات !

والحق أن الجبر الأحمر رخيص ، فا أذكر أنى استنفدت منه غير مثاقيل لا يزيد ثمنها عن بضعة قروش ، مع أنى قضيت

أكثر من ربع قرن في التدريس والتفتيش